استعارات البشر من مملكة الحيوان في اللغة والتراث (الجحش أنموذجاً)

أ. د. نادر سراج

أستاذ اللسانيات في الجامعة اللبنانية
عضو الجمعية الدولية للسانيات الوظيفية (SILF)
عضو الهيئة الإدارية لاتحاد المترجمين العرب.

«مسكين يا ناس إللي علّته مرته، إذا قتلها يقول الناس قتل مرته، وإن ما قتلها يقولوا سوّته جحش وركبته»[١].

لم يتبوّأ الجحشُ مقعدَه في كتاب «كليلة ودمنة»، لأن الحيوانات في هذا المؤلَّف التراثي تمثل رموزاً ثقافية. ويبدو أن ابن المقفع لم يعترف برمزية الجحش في هذا المجال، فلم يدخله إلى مملكة الحيوان المخلَّد أدباً رمزياً عربياً. وها نحن نحفر عميقاً في متون تراثنا الثقافي لنردّ الاعتبار إلى هذا الحيوان غير الناطق الذي استعلوه واستغبوه واستغيبوه، وقالوا فيه ما لم يقله مالك في الخمر، ومنها «واش معلّم الجحش أكل النعناع؟»[٢]، و«على ظهر الجحش»[٣]، وهي كناية عن الشيء المبذول، الرخيص الثمن، الذي يكون في متناول كلّ أحد.

لكنَّ إقصاءَ ابن المقفع لهذا الحيوان الأليف لم يمنعه من أن يحتلَّ مكانَ الصدارة في

(١) جمانة طه، الجمان في الأمثال، ط «١»، دمشق، ١٩٩١، ص ٤٤٣.

(٢) أحمد الرومي وصفوت كمال، الأمثال الكويتية المقارنة، ط «١»، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٨٠، ٤٢٥/٢.

(٣) محمد رضوان الداية، معجم الكنايات العامية الشامية، ط «١»، دار الفكر المعاصر، بيروت – دمشق، ص ٢٤١. وأصل هذه الكناية من البائعين الجوّالين الذين كانوا يتسوّقون البضاعة من سوق الهال في الشام ويبيعونها في الحارات بثمن زهيد.

عقول الناس، وعلى ألسنتهم، ويصولُ ويجولُ في منظومة أمثالهم الشعبية وأقوالهم السائرة وكناياتهم، وخصوصاً في مجال الازدراء والاحتقار وما شابه، ولا تفوتنا الإشارة إلى أن بعض الأمثال الشعبية جعلت من بعض الناس أدنى مستوى من الجحش ومؤنثه الجحشة الموصوفين بالبلادة والعناد والغباء وشرود الذهن وعدم الاكتراث وما شابه، فقالت «ما بيحطّ عن جَحْشتو، ما بينزل عن جَحْشتو»[١]، أو «مضيّع جحشة خالته»[٢]، وهي كناية عمّن لا يركّز، والذي لا يكاد يستوعب ما يجري حوله على نحو مقبول.

رغم كلّ هذه الأوصاف الاحتقارية التي أُسبغت عليه، فإن هناك صفةً مدحيةً لازمته وهي صفة الصبر والتجالد والقدرة على التحمّل والتمنّع عن الشكوى. بيد أن الأمور تنقلبُ رأساً على عقب متى ثبت حرف الجرّ بعد فعل الصبر. فصبر الحيوان على الأمر يجعله متجلداً وصابراً وصبوراً. وفي المقابل فإن بني البشر متى صَبَروا الدّابة، فهنا الطامة الكبرى؛ إذ إنهم بذلك يقاصصونها ويحبسونها بلا علف. لذا، لو قدّر لهذا الحيوان الأليف التعبير عن مكنوناته، لفضّل وجود حرف الجرّ ملازماً لفعل الصبر لدى الإتيان على ذكره! وملخص القول إن «جحشنا» لو لم يكن صبوراً لما تحمّل كلّ هذه الإهانات والسلبيات التي أنزلها به بنو البشر عبر العصور، بما فيها قطع ذنبه[٣]، والتي تأتي هذه المقالة لتميط اللثام عنها.

* * *

«مجَحّشة عَ الغدا»

نحن أمام مشهد ممكن الحدوث في غير مدينة عربية. أمٌّ غيورة تدعو ابنتها ذات الأربعة وعشرين ربيعاً لتناول طعام الغداء. الإبنة «المودرن» و«الستايليش»، خرّيجة جامعة لندنية مرموقة، والمتمكنة، أسوةً ببنات جيلها، من لغات ثلاث، والممتلكة لوسائل الاتصال الحديثة من Iphone إلى Ipod إلى Ipad، تردّ بجملة شبابية من وحي المقام: «Sorry مامي، آكْلِةْ، مْجَحّشة عَ الغدا»! مفهوم التجحيش الذي يحضر بلا استئذان. في معرض الاعتذار العفوي عن دعوة المشاركة في وجبة عائلية، استوقفتنا ملياً وحثّتنا للقيام بحفرية لغوية بحثاً عن استخدامات «الجحش» وجموعه ونظائره ونعوته، وما نشأ عنها من كنايات وصيغ مجازية تتصل بمفاهيم التجاحش والمجاحشة وما إليها.

* * *

(١) نزار أباظة، الأمثال الشامية، ط «١»، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٨، ص ٢٣١.

(٢) محمد رضوان الداية، معجم الكنايات العامية الشامية، م.س، ص ٣٤١. الخالة هنا هي زوجة الأب، والذي ضيّع حمار خالته يكون في أزمة حقيقية، فإن لم يجدها لقي عقوبة شديدة.

(٣) ثمّة مثل شعبي سوري يضرب للتردّد ويستحضر الجحش في منطوياته «لا تقطع ذنب جحشك بين اثنين: واحد يقول قصّرته وواحد يقول طوّلته». جمانة طه، الجمان في الأمثال، م.س، ص ٢٢١.

بطاقة تعريف الجحش: لغةً ونسباً

ليس من المستغرب أن يُنعت أحدهم بكناية سلبية «مِن كعب الدِّست» فيقال فيه «يا راس الجحش»[١]، بمعنى أنه عنيد كالجحش، أو «بهيم» أو «جحش حمار ابن حمار»، وذلك للإمعان في تأكيد النسب. ولدى العودة إلى القواميس العربية نلاحظ أن ثمّة توافقاً على إيراد جملة تعريفات ومعانٍ حقيقية وأخرى مجازية تعود لهذا الحيوان الأليف. فهو في اللغة، وفق معجم فصيح العامة[٢]، ولد الحمار، ويُجمع على جِحاش وجحْشان كما في اللسان. وهو كذلك عند العامّة، وهم ينعتون به الجاهل على المجاز، ويسمّون به ما يُرفعُ عليه التّخت (السرير) من طرفيه على سبيل التشبيه، كما يطلقونه على ما كان العرب يُسمّونه «حمار الصيقلي»، وهو كما روى اللغويون ثلاث خشبات مجتمعات الرؤوس منفرجات الأرجل يُثبَّت عليها لوح يقف عليه الصيقل (المورِّق) ليصقل الجدار. وفي اللسان: الحمار خشبة يعمل عليها الصيقل. وقال الليث: حمار الصيقل خشبته التي يصقل عليها الحديد[٣]. ويستعيد المنجد[٤] هذا المعنى الأخير المتداول شعبياً، لكنّه يورده بصيغة الجمع؛ جُحُوش وجُحُوشَة: عوارض خشبية مسمّر بعضها إلى بعض على شكل جحش ترفع عليها الأسِرّة (عاميّة). وهو يُستدعى أيضاً لدى ربّات البيوت بصورة «جحش الكوي» المراد به «لوحة الكيّ».

أما الجّحشة فهي: صُوفةٌ تُلفُّ على اليدّ وتُغْزَل. والجَحُوش: الصبيّ قبل أن يشتدَّ. وبدوره يورد أنيس فريحة أن الجحش: خشبة ذات أرجل يُرفع عليها ألواح خشب ويوضع فوقها فراش يُجلس أو يُنام عليه[٥]. ويضيف بذلك إلى حصيلتنا اللغوية معنيين جديدين. أما التجربة المثلية الفلسطينية فتسهب أكثر في شرح المعنى الشعبي المتداول لصيغة الجمع. جُحُوشْ وجُحُوشة: عوارض خشبية أو معدنية مثبت بعضها ببعض، تُرفع عليها الأشياء الثقيلة كالسيارات. ومن جهته يؤكد القاموس العربي الشعبي الفلسطيني أن المفردة كثيراً ما يستعملها الناس في الشتائم؛ لكنه يضيف جديداً إلى مخزوننا اللغوي؛ فـ جَحْش البسكليت: الجزء المعدني الممتدّ بين كرسي الراكب والمقود[٦]. ولا يخرج الأشقاء السوريون عن هذا الإجماع الدلالي العربي؛ فهو عندهم: نضد أخشاب مشبّكة يجعل دعمة أو سقالاً. عامي

---

(١) A. Barthélemy, *Dictionnaire Arabe-Français, Dialectes de Syrie*, Librairie Orientaliste, Paul Geuthner, Paris, 1935, 1/104.

(٢) أحمد أبو سعد، فصيح العامة، دار العلم للملايين، ط «١»، بيروت، ١٩٩٠، ص ١١٨.

(٣) لسان العرب لابن منظور، ٣/٣٢١.

(٤) قاموس المنجد في اللغة العربية المعاصرة، دار المشرق، ط «٢»، بيروت، ٢٠٠١، ص ٨٠.

(٥) أنيس فريحة، معجم الألفاظ العامية، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٣، ص ٢٥.

(٦) عبد اللطيف برغوثي، القاموس العربي الشعبي الفلسطيني / اللهجة الفلسطينية الدارجة، إصدار جمعية إنعاش الأسرة، البيرة، ١٩٨٧، ص ١/١٦٦.

مفصّح[١]. والمعنى الشعبي نفسه متداول لدى أبناء شمالي الأردن: قطع خشبية تثبت على شكل مثلث لتحمل العارضة الرئيسية التي يقف عليها البنّاء[٢]. ولكنهم يزيدوننا علماً؛ فيضيفون بأن من معاني فعل جَحَّش: فشل في المدرسة. لا يفوتهم أن يذكروا أن جَحْشَة هي: جانب الحصاد من الجهة الفارغة من الزرع، أي الجانب الذي تمّت عملية حصاده. وفي المعنيين الأخيرين دلالة غير مباشرة على الفشل والخواء. وينفرد الأب ميشال فغالي في إيراد معنى للجحش منسول من طبيعة الحياة الريفية في لبنان؛ فهو كيس صغير يُربط طرفه ويُعلّق وتوضع بداخله «الحوّارة» التي ترقد في أسفل الوعاء المخصّص لعصر العنب، كي يعدّوا منه الدبس[٣].

* * *

الجحش بين الخؤولة والعمومة

إذا كانت تسمية الكديش (حيوان هجين أمّه فرس وأبوه حمار) تطلق على خيول الفلاحة والجرّ التي لا يمكن تهجينها مع الأصايل، فإن هذه التسمية تلحق في بعض مناطق الشام بكلا الحمار والجحش. ومتى تساءلنا عن الفرق بين صنفي الجحاش والبغال، لعلمنا أن الجحش يكبر ويبقى حماراً ويتناسل. أما البغل فهو يظلّ بغلاً، عقيماً دائماً ما يُخصى، ولا يتناسل، فينضج جسمه ولا يصلح للركض، وأنثاه كديشة[٤]. وثمّة مثل شعبي يحذّر من التقريب بينهما «لا تربط الجحش حدّ البغل، إنّ ما تعلّم لبيطه بيتعلّم نهيقه»[٥].

هذا لجهة التناسل وحفظ الذرية؛ أما بخصوص الأمومة والأبوة، فالجحش يداني الكديش[٦] (أو القديش) حلاًّ ونسباً؛ إذ يرد في الأمثال الشعبية: «قالوا للكديش مين أبوك؟ قال لهم: الحصان خالي»[٧]. هو كريم المحتدين؛ فأمّ الجحش هي البغلة وأبوه هو الحمار، لذا، فهو يعتبر ثلاثة أرباع الحمار. وللتذكير فالثقافة الشعبية تحفل بصورة سلبية ومستهزئة به وبوظائفه: «بيعزموا الجحش على العرس... يا لَحَمْل الميّ... يا لَحَمْل الحطب»![٨]

---

(١) ياسين عبد الرحيم، موسوعة العامية السورية، ط «١»، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٣، ١/ ٣٩٠.

(٢) عبد الله الشناق، وفايز أبو الكأس، معجم العبارات الريفية في شمال الأردن، ط «١»، منشورات جامعة اليرموك، إربد، ٢٠٠٠، ص ١٣٢.

(٣) Michel Feghali, *Contes, Légendes, Coutumes populaires du Liban et de Syrie*, Librairie d'Amérique et d'Orient, Paris, 1935, p. 66.

(٤) ابراهيم شعلان، الشعب المصري في أمثاله العامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٢١٦.

(٥) أمين فريحة، معجم الألفاظ العامية، م.س، ص ١٤٤.

(٦) ثمّة مثل شعبي رائج هو «عيش يا كديش تَ ينبت الحشيش» ويضرب لاستحالة الأمر. وقد ورد القسم الأول منه معدّلاً «نطوّر يا كديش» في عنوان لخبر سياسي. مجلة الدبور، العدد ٣١٤١، ٢٠١١/١١/٧.

(٧) فوزي قديح، الأمثال الشعبية الفلسطينية، منشورات علاء الدين، دمشق ١٩٩٥، ص ١٣٣.

(٨) معلومات مدرجة على موقع المنتدى السعودي.

ومن طرائف التسميات العائدة له أن صغيره هو الجَحوَش أو الجحّوش (تصغير شعبي)، والجاحوش وتقال للولد من باب التحبّب[١]؛ وهو حمار صغير ذو جسم ضئيل[٢]، وبات مضرب المثل لانعدام فائدته: «جحش كرّ (حمار صغير) لا بيَنْفَعْ ولا بضرّ»[٣]. فإذا قلبت الواو ياءً وقعنا على الجحيش المعروف في العراق والذي يضرب فيه المثل «عيش يا جحيش لمّن يجيك الربيع»[٤]. وهو المكان البعيد، ومنها جُحَيْش المحلّ بمعنى مبتعد أو منفرد عن الآخرين[٥].

لمفردة «الجحش» مروحة مشتقات: من المصدر «جحشنة» و«مجاحشة»، وصيغة جمع «جحاش»، وصيغة تصغير «جُحيش» ويقال فيمن يستبدّ برأيه ولا يشاور الناس ولا يخالطهم «هو جُحيشُ وحدِه»[٦]. وفعل «تجاحش» و«دجحشن» و«تَجَحْشَنَ»، بمعنى سلك سلوكاً خشناً يتميّز بالحماقة، واسم المفعول منه «مجَحّشة»؛ والأخيرة انسلّت من دون استئذان في حديث عائلي مغرقٍ في يوميته، وحفزتنا لاستعادة سيرة ذاتية طريفة لحيوان أليف ومظلوم، تستحقّ أن تُروى.

ثمّة سؤال منهجي حفّزنا في الحقيقة لرصد التحوّلات والانزياحات الدلالية اللاحقة بالنعوت العائدة، أو المنسوبة، لهذا الحيوان الأليف المعروف بصغر الحجم والمتّهم ببلادة الذهن وغِلاظة الفهم وما إليها.

نقول لِمَ يا تُرى يُرمى المرءُ – شاءَ أم أبى – بتهمة «الجَحْشنة»، ويوجّه إليه الحديث بوصفه «زيّ الجحش» أو هو «يجاحش» آخرين، أو هو «يَتَجَحْشَنُ» عليهم؟

قبل أن نسترسل في تساؤلاتنا نلاحظ أن للمجاحشة طقوسها وجانبها الإيجابي؛ فمتى قيل إن فلاناً «يجاحش عن نفسه وغيره مجاحشةً»، فهذا يعني أنه يدافع ويقاتل. وفي حديث شهادة الأعضاء يوم القيامة (بُعداً لَكُنَّ وسُحْقاً فَعَنْكُنَّ كنتُ أُجاحِشُ)[٧]. الصيغة الفعلية عينها تتّخذ إذاً دلالات مختلفة متى تعدّلت السياقات التي تُستحضرُ فيها.

* * *

(١) ياسين عبد الرحيم، موسوعة العامية السورية، م.س، ٣٨٢/١.

(٢) A. Barthélemy, op. cit., 1/104

(٣) سعد الدين فرّوخ، الأمثلة البيروتية في سياق الأمثلة اللبنانية، ط «١»، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥، ص ٦٨.

(٤) معجم أمثال الموصل العامية، الهذلي، المكتبة العربية بالموصل، جزءان، ط «١»، ١٩٥٦، ٢٨٥/١.

(٥) جبور عبد النور، معجم عبد النور، دار العلم للملايين، بيروت، ٦٥٨/١.

(٦) الطاهر الزّاوي، مختار القاموس، ط «١»، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٩٣.

(٧) عبد المنعم عبد العال، معجم الألفاظ العامية المصرية ذات الأصول العربية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧١، ص.ص ٤٨-٤٩.

الدلالات «الجحشية» المخترقة لتخوم الجغرافيا العربية

الدلالات الناشئة عن عالم «الجحش» ومستتبعاته، والتي استطعنا الإحاطة بها من متون القواميس وكتب التراث، وفي استخدامات الجمهور، ليست سكونية الطابع. ولحسن الحظ – أو سوئه – فالأوصاف والصور والكنايات المستلّة من مصدر «الجَحْشَنَة» تتعدّد في «محاسنها» ومعانيها، التي تعرف انزياحاً دلالياً ملحوظاً يتصل بمسألة تنوّع البيئات الاجتماعية الثقافية العربية الصادرة عنها، والمتداولة بين أهلها. ومن باب العلم، فذكر الجحش وافر في نطاق بلاد الشام، ونادر في المغرب العربي والجزيرة العربية حيث ينتعش ذكر الإبل.

وكما سبق القول، فإنّ عالم «كليلة ودمنة» الذي ابتدعه ابن المقفّع ليحكي بألسنة أبطاله وقائعَ البشر وتبدّل أحوالهم ناهيك بالظلامات اللاحقة بهم، يُستعادُ في بعض جزئياته، وفي ما خصّ الجحش على وجه التحديد، في ثقافتنا الكلامية، التي تستحضرُ لسبب أو لآخر هذا الحيوان المغلوب على أمره في مَعْرِض ضربِ الأمثال عن نماذج البلادة وانعدام الذكاء والعناد والدونية والغباء والجهل والحمق وسواها.

نبدأ بنموذج فصيح ورد ضمن «فرائد الأدب» في الأمثال والأقوال السائرة عند العرب:

«الجَحشَ لمَّا فاتك الأعيارُ». والمعنى: اقتصر على صيد الجحش إذا لم تقدر على العَيْر. يُضرب لمن يطلب الأمر الكبير فيفوته فيقال له: أطلب ما دون ذلك[1]. معالم الدونية تبدو واضحةً إذاً في ثنايا هذا المثل الذي نورده هنا على سبيل المثال لا الحصر.

وإذا كان التواصل الثقافي بين أبناء لغة الضاد يعتمد في إحدى قنواته على منظومة الأمثال الشعبية العربية التي تختصر التجارب، وتستخلص العِبَرَ والحكم من خلال ضرب الأمثال، فموضوع بحثنا لا يغيب عن عالم البلاغة الشعبية. ومتى رصدنا الدروب التعبيرية والسياقات اللغوية التي يُساق هذا الحيوان الأليف مكرهاً لاجتيازها، اكتشفنا الخُطى التي كتبها البشرُ عليه، فَمَشَاها صاغراً، على أربعٍ، وفق مقولة «مرغمٌ أخوكَ لا بطل».

هي بادئ ذي بدء العنادُ والبلاهةُ والتشاجرُ والتدافعُ الفظّ والجلفُ (بلاد الشام)؛ وهي أيضاً بلادةُ الذهن والسلوكُ الخشن الذي يلامسُ مرتبةَ الحماقة (فلسطين).

سيل الصور المجازية بلغة الضاد لا يتوقف: فالعامّة تستحضرُ مفردةَ الجحش لتلمّح إلى ضخامة الجسد والبلادة والغباء (الحجاز). كما تتوقّف الأمثال عند عناده وعدم التراجع

(١) قاموس المنجد في اللغة العربية المعاصرة، م.س، ص ١٥٨٦.

عن آرائه؛ أو الإقدام على العمل من دون التفكير فيه، أو الجفاء وغلظ الطبع، أو التردد أو إغلاظ القول في شتمه واستعمال الكلمات البذيئة في سبّه، (سوريا). وهي لا تهمل، لدى الإتيان على ذكره بشتى الصور، الإشارةَ إلى التفاهة وقلّة المقدار وانتفاء القيمة وانعدام الهموم لديه (الأردن)؛ ناهيك بالرفقة السيئة والتفرّد والخروج عن المعروف في «عقله» وفي تصرفاته، دنيا وآخرة (لبنان). وهي من جهة أخرى تعكس الأوصاف؛ إذ تسلّط الضوءَ على الإنسان المستبدّ برأيه والذي لا يشاور الآخرين ويتجنَّب الاختلاط بهم؛ فتنعته بسمات الجحش. وعن «محاسنه» التي تُسبغُ على المرء، التصاق صفة الوشاية به، وتضخيم الأسرار وإذاعتها بشخصه (ليبيا). أما السلبيات التي تربطها الأمثال بصورته فتتمثل بوضاعة المهام الموكلة إليه والدالة على عدم الاكتراث (السعودية). وثمّة سلبيات خمس إضافية لا تخرج عن نطاق هذه الأوصاف الاستهزائية السابقة الذكر والمقللة من الشأن، ونعني بها المعارضة في غير لباقة (مصر)؛ وطلب الفائدة (العراق)؛ والمبالغة، والجهل وعدم تقدير قيمة الأشياء (الكويت).

* * *

نماذج «جحشية» من واقع الحال

وكما سنرى، فالكناية التي تلحق بفلان من البشر للإشارة إلى غبائه وبلادته تستحضر أحياناً الجحش المظلوم؛ فيقال عنه من دون أيّة مواربة «زيّ الجحش». والعامة لا تجد حرجاً في استخدام هذه الكناية التي تُضرب فيمن يزاحم غيره ويدفعه بضخامة جسده لاعتقادهم بغباء هذا الحيوان وبلادته[١]. ومتى رغبوا في الإشارة إلى شخص محدود، يفسّر الشيء بمثله، قالوا «مش جحش، مجحّش»[٢]. لكن بيئته الأولى التي أبصر فيها النور، وأهّلته كي «يشيل الزرّيعة»؛ أي يتصيّد أخبار الناس وأسرارَهم وما تجرّه من مشكلات، ويضخّمها ويذيعها[٣]، هي الضيعةُ التي يستحضرُها المثلُ «جحش الضيعة بذاتو أفهم مني بعضلاتو»[٤]، وذلك في معرض المقارنة بين غباء الحيوان والبشر.

والاستعارة المجحفة لا تقف عند هذا الحدّ؛ فهم متى أوغلوا في وصف إنسانٍ بالغباء وقلّة الفهم وسوء التصرّف، اتكأوا على المثل السابق، ورفدوه بإضافة نوعية، مستعينين لهذه

(١) فريد سلامة، معجم الأمثال الشعبية في مدن الحجاز، ط «١»، دار المؤلف – بيروت، دار الورّاق – الرياض، ٢٠٠٩، ص ٤٣٨.
(٢) هاني العمد، الأمثال الشعبية الأردنية، ط «٢»، منشورات وزارة الثقافة، عمّان، ١٩٩٦، ص ٤٥٤.
(٣) حبيب مغنية، معجم الأمثال الليبية، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلام، بنغازي، ١٩٩٩، ص ٢١٨.
(٤) سعد الدين فروخ، الأمثلة البيروتية في سياق الأمثلة اللبنانية، م.س، ص ٦٨.

الغاية بصيغة التفضيل، فقالوا: «أجحش من جحش الضيعة يلّي بدَيّن مصرياته»[١]. وصيغة التفضيل عينها تبرز في مثل شعبي سوري، زبدانيّ المنبت، «ادفشه، وشوف ما أجحشه»، ويضرب لمن يقوم أحد من المحيطين به بتوريطه بفعل ليس لمصلحته، فيقدم عليه دون أن يفكّر فيه.

* * *

مفهوم التجحيش في الممارسات الجندرية

تجحيش الزوجة:

ومن الطريف وذي الدلالة أن ثمّة معنى مجازياً يتصل هذه المرة بتأزم العلاقة الزوجية، وانتقال بطليها من حال الوئام إلى الخصام فالفراق فالطلاق. فقولهم: جَحَّشَ الرجل، تزوّج مطلقته ثانيةً بعد أن تزوّجها آخر، فهو مُجحَّش[٢]. وفي المعنى نفسه «جَحّشَ المرأة المطلقة: تزوجها تحليلاً لعودتها لزوجها الذي طُلّقت منه؛ فهي تجحَّشت. والمصدر «تجحيش»[٣]. وهذا المعنى متداول عند العامة، ويراد به الطلاق الخلعي.

وقد رصد المستشرق الفرنسي بارتيليمي في قاموسه العربي – الفرنسي صورة مجازية تُعزى للجنس اللطيف. فالمرأة المجحّشة في بلاد الشام هي امرأة شهوانية وفاجرة. وفي الفرنسية يقال عنها vache «بقرة». ولا تثريب في هذا التشبيه، فالاثنان ينتميان إلى مملكة الحيوان.

أما فعل التجحشن فيختلف معناه وفق الابطال القائمين به. إذ يلاحظ المستشرق الفرنسي بارتيليمي أن «دجحشن» يراد بها طريقة تتقاتل بها الحمير، وتتضمن حركات وإشارات الحمير الشهوانية. أما متى قيل عن الأطفال أنهم «تجحشنوا»؛ فذلك يعني أنهم تقاتلوا بطريقة فظة وجلفة، أو وفق أسلوب الحمير تعضّ بعضها بعضاً. ويختلف الوضع متى نُسب هذا الفعل للنساء؛ فيعني إذ ذاك: يمرحن ويهزلن بحرية مطلقة مع الرجال[٤].

وثمّة استخدمات عامية شائعة مثل «جحش العيد»؛ أي اليوم الذي يلي آخر أيام العيد، و«الخميس جحش الجمعة»، ويضرب في الفرق الزهيد الذي لا قيمة له[٥].

* * *

(١) م.ن، ص ٢٩٦.
(٢) أنيس فريحة، معجم الألفاظ العامية، م.س، ص ٢٥.
(٣) ياسين عبد الرحيم، موسوعة العامية السورية، م.س، ص ٣٩٠/١.
(٤) هاني العمد، الأمثال الشعبية الأردنية، م.س، ص ٢٢.
(٥) م.ن، ص ٢٢٠.

معانٍ متفرقة لمشتقات الجحش ونظائره

معنى التشاجر و«التهارش» يبدو في تعبير «طلعت الجحاش عَ الأسطحة»، الذي يلاحظ المستشرق بارتيليمي أنه يعني أن الناس دخلت في شجار. أما قولهم «فلان سافر جَحّاش» فيريدون به: سافر على ظهر حمار، وهي مرادفة لتعبير «سافر على جُحَاش». والجحّاش هو سائق الحمير. ولراكب الجحش مثله الخاص به والساخر منه: «يا راكب الجحش أو متْجَنِّده بالحماره». ويضرب لمن يعتدّ بشيء تافه لا قيمة له[١]. أما الصورة المجازية للشخص الأبله، فلا تخرج عن هذا السياق: «جحش مربوط على معلف». وثمّة صور مجازية تُعزى للطفل؛ فـ الجَحوش: الطفل الذي بلغ خمس سنوات. فإذا فُطم فهو فطيم، فإذا انتفج وارتفع فهو جَفْر. فإذا ارتفع عن ذلك فهو جَحوش. واجحنشش الصبي إذا قارب الاحتلام ولم يحتلم[٢]. ونختم بكناية طريفة سمعناها واستخدمناها نحن أبناء جيل الستينات والسبعينات من القرن العشرين، وهي «جحش الدولة» للترام الأحمر أو «الترمواي» الذي كانت تعرفه شوارع بيروت والذي لم يكن يحيد قيد أنملة عن مساره[٣].

كلمة أخيرة

إذا أردنا أن نستخلص لقلنا إن مجمل المعاني والمجازات المرسلة والكنايات المتداولة في صفوف البشر، عن الجحش وبخصوصه، والمراد بها الإنسان (رجلاً وامرأة وطفلاً) والحيوان والجماد على حدّ سواء، تتمحور عموماً حول مفاهيم الاستعلاء (عند النجارين والحدّادين والبنائين)، والاستغباء وبلادة الذهن والبلاهة والتسرّع، والبطء والانقياد والركوب (الترامواي)، إلخ...

وكما رأينا، فهذه المفردة العاميّة المفصّحة تمتلك مروحة استخدامات تُعرفُ لدى العوام والخواص، وتصنّف في القواميس والمعاجم. فهي لغةً: السّجْحُ والخدشُ (سَجْحُ الجلد وقشره من شيء يصيبه أو حكّه ونزعه). ومجازاً مرسلاً «القتال» وكنايةً «الجفاء وغلظ الطبع»، وولد الحمار قبل أن يُفطم. و«تشبيهاً» ولد الظبية، ومُهْر العرب، والصبيّ. و«مجازاً» البليد الذهن. وتشير موسوعة العامية السورية[٤] إلى أن الكلمة في مجال الاستعمال بالمعنى الرابع والثامن والنضد الخشبي الذي يجعل دعمةً أو سقالاً كما سبق القول.

(١) م.ن، ص ٣١٢.
(٢) ياسين عبد الرحيم، الموسوعة العامية السورية، م.س، ٣٨٢/١.
(٣) صحيفة اللواء، ٢٠١١/٥/١٨.
(٤) ياسين عبد الرحيم، الموسوعة العامية السورية، م.س، ٣٩٠/١.

ونختم بتطمين القارئ إلى أن مفردة الجحش غزت أخيراً الخطاب السياسي. فقد لاحظنا أنها استحضرت في منظومة الشعارات[١] والتعليقات الكاريكاتورية السياسية التي تمخضّ عنها «الربيع العربي»، حيث استعيرت أوصافها للإشارة إلى بني البشر. فحلت بذلك إلى جانب أخواتها من كلاب وخيل وبغال وجرذان وجمال (موقعة الجمل).

بدأنا الكلام عن مفهوم «التجحيش» في ثقافة الأكل، وها نحن ننتهي إلى الحديث عن توظيف مفهوم «التجحيش» في الشعار السياسي. فسبحان مبدّل الأحوال ومعدّل السياقات وموسّع مروحة الاستعارات من مملكة «كليلة ودمنة» إلى عالم البشر ذهاباً وإياباً.

* * *

(١) انظر صحيفة: L'Orient Le Jour, 2/8/2011.